أعلام الأدب

أرستوفان والديمقراطية(*)

للأستاذ دريني خشبة

كان أرستوفان رجعياً إلى درجة السخف فى رجعيته ، لكنه كان على شيء غير قليل من الحق فى تلك الرجعية التى حارب بها سيد شعراء الدرام يوريبيدز ، وأبا الفلاسفة سقراط ، والتى جعلها حرباً غير راحة على الديمقراطية

يذكرون أن أولى كوميدياته (رجال من جزلتون Daitalês) التى تقدم بها للمباراة فى الشعر الهزلى سنة ٤٢٧ ق . م كانت تدور كلها حول التعليم العالى والحط من قيمته ونسبة كل شر خاق بأثينا وأفسد أخلاق شبابها إليه ... والكوميديا وإن تكن مفقودة إلا أن النتف الباقية منها تعرفنا بموضوعها الذى يقوم بدور البطولة فيه ، والد مسكين حائر بين ولديه ... فأحدهما شاب تقى محافظ متمسك بعروة السلف الصالح وتقاليده الوثقى ، والآخر فتى متمرد فاسد يسخر بالماضى وسُننه العتيقة وآدابه البالية ، فما يزال يتهكم بأسلوب الحياة التى يحياها والده ، ويُسفّه تقوى أخيه ، ويتبجح بالموبقات التى يأتيها هو فى غير تورع ولا استحياء ، لأنها فى زعمه من مقومات المدنية التى لا يفهمها إلا على أنها فسوق وخروج على المألوف

وفى سنة ٤٢٣ تقدم بملهاته الخالدة (السحاب) التى نعى فيها ما شاء له لسانه السليط بسقراط وفلسفة سقراط ، والتى يضع فيها رجلاً طاعناً فى السن أمام سوفسطائى ، فهو يسأله عن أبرع الطرق التى يأكل بها دَيْن الناس عليه (! !) ، ثم يصنع حواراً شائقاً بين العلة العادلة والعلة غير العادلة (! !) وينتهى بإحراق منزل سقراط ! وسنعود إلى ذلك فى فرصة أخرى لما (للسحاب) من مكانة فريدة بين كوميديات أرستوفان

وقد كان لرجعيته يعزو ما أصاب أثينا من تدهور وانحلال إلى أدب يوريبيدز ، وسنفرد لذلك فصلاً خاصاً نتناول فيه كوميدياته الثلاث الكوامل التى خصه بها ، وإن تكن لا تكاد إحدى كوميدياته تخلو من ذكر يوريبيدز والتنديد بيوريبيدز ، وإن يكن يوريبيدز مع ذلك أستاذه وملهمه

وبعد ، فماذا كان بين أرستوفان وبين الديمقراطية ؟ ولماذا كان يبغضها ذلك البغض الشديد الذى تجلى فى معظم كوميدياته ؟ لقد تناولنا فى الفصل السابق بعض الإجابة عن هذا وذاك ، ونحن نضع بين يدى القارئ فى هذا الفصل خلاصة لكوميدية أرستوفان المضحكة (الفرسان The Knights) التى تقدم بها للمباراة سنة ٤٢٤ ونال بها الجائزة الأولى من الهيئة الرسمية التى كانت تهيمن عليها حكومة كليون Cleon ، وقواد الجيش والشعب من أمثال نسياس وديموستين الخطيب المفوه العظيم

لم يبال أرستوفان أن يسخر بأبرز شخصيات الحكم فى أثينا فى ملهاته هذه ، فصورهم تصويراً كاريكاتورياً مضحكا ، مستمداً فى ذلك عيوبهم الخاصة ووقائع حياتهم اليومية . ولعله أول رجل فى التاريخ عمد إلى اختراع الشخصية الفكهة التى تمثل دولة بأكملها . فنحن نعرف أن شخصية جون بول تمثل فى العصر الحديث دولة بريطانيا العظمى ، كما تمثل شخصية العم سام الممالك المتحدة الأمريكية ، وكما تمثل شخصية (المصرى أفندى !) مصر الحديثة . وقد سبقنا أرستوفان إلى خلق هذه الشخصية المضحكة المحببة فابتكر لكوميديته شخصية (ديموس) ذلك الرجل الكهل الأنانى الطاغية فجعله رمزاً لأثينا الهرمة المضطربة ، وللأثينيين الديمقراطيين الذين ذهبت دولتهم وشاع الفساد فى أخلاقهم ، واضطرب حبل حكومتهم ، وذلك لما نشره فيهم السوفسطائيون وعلى رأسهم سقراط من فلسفة ، وما بثه فيهم يوريبيدز من جرأة واستهتار بالتقاليد ، وما أفسد به المرأة من تمثيل التراميات المحرمة أمامها فى المسرح ، ولما صنع بهم الإفراط فى الديمقراطية بعد بركليس من استباحة الحرمات وضياع القيم وجرأة الأوشاب على السراة وأهل الرأى باسم الحرية وفقدان الحدود بين الطبقات

ثم سلط أرستوفان على ديموس هذا رجلاً محتالاً خداعاً هو زعيم الرعاع فى أثيناه الدبما جورج كليون» الدباغ (!!) وبائع جلود الحيوانات القذر(!) فجعل إرادة ديموس تتلاشى فى إرادته ، وجعله لا يبرم صغيرة ولا كبيرة إلا بإذنه ، ولا يحكم على أحد بخير أو شر إلا إذا حكم عليه كليون بالخير أو الشر ، فكان إلى جنبه

(*) تحمل هذه الكلمة معنى (النبلاء) وقد ترجمها ج . موكام بزبرجها وهذه تلخيصها

إمعة لا قيمة له ولا رجاء فيه ، يُوَجهه حيث يشاء ، ويسخّره لما يريد... وسماه كليون « الپافلاجوني » أي القِنّاف[1] الذي يرسل الزبد في وجوه محدثيه حينما يكلمهم ! ثم نعته بالمجرفة والصلف والقحة إذا كان أمام مماثليه ، وبالتذلل والضراعة ولبس مسوح الرهبان إذا كان تلقاء مولاه ؛ وجعل زملاءه العبيد يكرهونه وينفرون منه لأنه يستأثر بمولاه من دونهم ، فيفرض عليه ما يرى هو ، لا ما يرى جماعة العبيد

أما من هو كليون هذا فهو نفسه ذلك الرجل الهائل صاحب الأمر والنهي في أثينا في ذلك العصر ... الرجل الذي رفعه الرعاع ورفعته الديمقراطية المطلقة إلى ذروة الحكم ، وألقت إليه بزمام السلطة يصرفها كيفما يشاء ما دام في حرز حريز من رضى الغوغاء ، وما دام متمتعاً بحبهم الجاهلة الحمقاء

كان كليون إذن عَبْدًا لمولاه ديموس بالدهاء والختل ، لكنه كان سيد أثينا ودكتاتورها المطلق عن طريق هذا « الطِّبْو ! » ديموس نفسه ، فماذا يصنع أرستوفان لخمد شوكته وتحقيره كما يحقّر هو أحلام أمة بأسرها ؟

لقد جعل له نِدَّيْن من العبيد الأرقاء على شاكلته ، هما نسياس وديموستين ... ونسياس وديموستين هما أعظم رجال الحربية الأثينية في ذلك العصر . وقد أورد أرستوفان اسميهما صريحين كما أورد اسم كليون ، ثم جعلهما من عبيد ديموس (أوجون بول أثينا !) ، وجعلهما يحقدان أشد الحقد وأمره على كليون لأنه استبد بالسلطان من دونهما فراحا يتمنيان له الشر ويتلمسان له البلاء المبين .. وقد كان نسياس رجلاً فطرياً ساذجاً محافظاً على القديم ، يعتقد اعتقاداً جازماً بالخرافات . أما ديموستين فقد جعله أرستوفان رجلاً مرحاً في برود وعدم مبالاة ، إذا اعترم شيئاً لم يتردد في تنفيذه ولو خرط من دونه القتاد ، وكان يقبل على الخمر ويشغف بها شغفاً شديداً ، فكانت تضاعف من جرأته وتزيد في إقدامه

وقد غيظ نسياس وديموستين من كليون لأنهما أقدم منه في خدمة مولاهما ديموس ، فقد اشتراه بعدهما بزمن طويل ، ومع ذلك فقد تقدم عليهما عنده بدهائه وطول حيلته ، ولذلك فكرا طويلاً في عزله من منصبه في خدمة مولاه ، فذهبا ليستوحيا كهنة باكيس ، فقيل لهما إن الذي يخلف كليون في منصبه في خدمة ديموس هو شخص من صميم الشعب الديمقراطي ! ! هو بائع الأكارع (والسجق !!) أجورا كريتوس ... « من أجورا حيث ألتمس الرزق لي ولعيالي ! » أي أن اسمه مشتق من أجورا الذي هو سوق الحوايا (الكرشة والأكارع والأمعاء والفشة وما إلى ذلك ... من أسواق أثينا ! !) ...

وقد تحققت نبوءة باكيس . وأقدم كريتوس (في آخر الملهاة) حيث استطاع أن ينفذ إلى الصميم من قلب ديموس ، وأن يحل فيه محل كليون الذي لم يستطع أن يبارى (بائع السجق) في ميدان المهارة والوقاحة والبورجوازية ! وبذا تربع كريتوس في كرسي الوزارة ـ كرسي النبل والشرف ! ـ مكان الغريم المنهزم .

وهكذا كان منطق أرستوفان في تحليله للديمقراطية ... فمن يستطيع أن يجرد هذا المنطق العجيب من الحق ـ أو من بعض الحق ـ فيما يتعلق بمآل الديمقراطية إذا منحت بلا قيد ولا شرط لشعب أخذت عوامل الانحلال تدب فيه مثل الشعب الأثيني ؟ ومن يمنع بائع السجق من أن يصل إلى كرسي الوزارة ليتحكم في أعناق السراة من النبلاء والساسة الجامحة ومسرح الأكروپوليس فيتصرف فيهم كأنهم عبيد أبيه أو قطعان الماشية بسيمها حيث يشاء !

هذا وينبغي أن نرجع إلى الوراء قليلاً لنعرف ماذا نشب من المعارك بين أرستوفان وبين كليون قبل نظمه الفرسان سنة ٤٢٤ ق . م ؛ فإن تاريخ العداوة بين الرجلين يرتد إلى ما قبل ذلك ؛ حينما تقدم أرستوفان بملهاته (البابليون) ـ وهي ما تزال شائعة إلى اليوم ـ للمباراة العامة في الشعر الكوميدي في عيد باخوس الصيفي (الديونيزيا) سنة ٤٢٦ ، وهو العيد الذي كان يحضره أحلاف أثينا من كل صوب ليشاركوا الأثينيين أفراحهم ، فكانت هذه الملهاة مما شاهدوا ، وفيها صور أرستوفان أحلاف أثينا عصبة من العبيد الأرقاء يجرون طاحونا ثقيلاً لديموس (جون بول أثينا!) وكان صارماً إلى آخر حدود الصرامة في حملته على النظام الديمقراطي السائد الذي كانت تهيمن بوساطته عصبة بعينها من الزعماء على مقاليد الحكم فلا ترم عنها ولا تستطيع فئة أخرى أن تحل فيه محلها ما دامت الأكثرية ـ والأكثرية دائماً هم الغوغاء ـ مؤيدة للفئة الأولى .

كان أرستوفان منيفاً إلى غاية حدود العنف في هذه الملهاة

(١) لم ترد القناف بهذا المعنى في معاجمنا ولكن وردت بمعنى نافل أحاديث النساء ، وقد استعملناها نحن على هذا النحو فتكون ترجمة حرفية لكلمة Paphlagonian المشتقة من Paphlazo أي يمعق أو يزبد

المفقوده ، وقد استطاع أن يفضح كليون وزبانيته فضيحة قهقه لها الأحلاف من وراء أشداقهم . وإن صورهم فى هذه الصورة المزرية الشائنة التى خفف من مرارتها فى نفوسهم ما شاهدوا من تصويره لرجال الحكم وعلى رأسهم كليون الماثل ... فلما عاد الأحلاف بعد انتهاء حفلات الديونيزيا ، أمر كليون فقبض على أرستوفان وحوكم من أجل ملهاته تلك بتهمة الخيانة العظمى ، لأنه فضح الدولة وأهان أحلافها ، وصنع ذلك فى غير تورع ولا احتشام فى عيد دينى قومى !

ولسنا ندرى ماذا كان الحكم الذى أصدره القضاة على أرستوفان . ويبدو أنه لم يتعد الغرامة أو التوبيخ ، ونستنتج ذلك مما صنع أرستوفان فى العام التالى حينما تقدم إلى المباراة الكوميدية فى عيد الربيع الـ(لينايا) سنة ٤٢٥ ـ أى بعد محاكمته بتسعة أو ثمانية أشهر تقريباً ـ بملهاته ألـ أخارنيين Acharnians ـ وهى أقدم ما حفظت لنا يد الفناء من كوميديات أرستوفان ـ وفيها يعتذر للجمهور عما وقع فيه من إهانة الحكومة وتحقير الحكام فى ملهاته السالفة ... ولو أنه كان قد حكم عليه بحكم شديد أو يتعدى الغرامة أو التوبيخ لما استطاع فى مثل هذه السرعة أن ينظم ملهاته الجديدة ، ويحتفظ فيها بثباته وبراعة نكته ، ولما تناول فيها شخصية كليون أيضاً بشىء من الهكم اللاذع ، وإن يكن هذه المرة قد بدا رفيقاً بالطاغية الجبار، فكان يسخر منه حينما يفعل ذلك فى حيطة وحذر وحساب شديد

وكأنما ضايق أرستوفان أن يقف مكتوفاً هكذا لأن كليون يخيفه ، ففرج عن نفسه بمهاجمة شخص آخر هو لاماخوس ، ثم شخص ثالث هو خصمه الأكبر يوريبيدز الذى يسلقه هنا بلسان حديد، ويعزو إليه إتلاف روح أثينا! وقد عجب الشاعر الكوميدى المعاصر لهذا التحرش المستمر من أرستوفان بيوريبيدز ، وكان مما لاحظه أن أرستوفان ينسج على منوال خصمه ولكن فى ميدان الكوميديا ، فكأنما كوميدياته هى معارضات لدرامات يوريبيدز . ومن أجل هذا اخترع كراتينوس اللفظة : Euripidaristoaphnize التى نحتها من اسمى الشاعرين للاشارة إلى تقليد أرستوفان لخصمه ، وهى كما نحت نحن فى العربية بعض الكلمات التى تدل على عبارة من نحو يحوقل أى يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله، ويحيمل من قوله حيعلى الصلاة الخ.

وملهاة الآخارنيين هى مناداة نظامها أرستوفان من أجل الدعوة إلى السلام خلال حروب البلوبونيز (المورة) ، وبطلها دسيوبوليس هو مواطن أتيكى ساذج لكنه مقاحم ذكى ثاقب الفكر ، وقد اضطر أمام جيوش الغزاة الأسبرطيين الذين اقتحموا قرى أتيكا إلى الفرار إلى أثينا ليلوذ بأسوارها ... وهنا تثور ذكريات الريف الجميل الهادئ الفطرى بخلد الرجل ، فيأسف على العيش الساكن البسيط ، وأوقات الصفاء فى حقول أتيكا فيتمنى على أرباب الأولمب أن تنشر ألوية السلام على ربوع الوطن لتعود مياه الحياة إلى مجاريها ... وتتسلسل وقائع الكوميديا فينعقد مجلس الدولة ويشتد الجدل ، ويشتط الزعماء فيقسمون ألا يكون سلام حتى ولو تنزل به من السموات بأسرهم به ! ... على أن الأمر ينتهى بعقد الهدنة لمدة ثلاثين سنة فيعود دسيوبوليس جذلان فرحاً إلى ريفه الجميل ، ويتمتع الناس بسلم طويل يفيقون فيه من أهوال الحرب التى جرتها الديمقراطية — أو جرها زعماء الديمقراطية المستبدون — على الوطن الحزين المكين .

ولما كان أرستوفان يحس ما يلقاه الأتيكيون من أهوال حرب المورة ؛ فقد استمر يدعو إلى السلام فى كثير من كوميدياته فى سنة ٤٢١ تقدم بملهاته (السلام) التى جاءت آية من آياته ... وهى ملهاة خيالية يصور فيها رحلة فلاح أثينى على ظهر خنفساء (!) إلى السماء ينشد السلم ثمة ، لأنه سئم الحرب وضج من أهوالها ! ولشدة حيرة الفلاح يجد أن الآلهة قد ذهبت فى السماء مذهباً لأنها هى الأخرى قد نفرت من الناس واشمأزت مما تقترفه أيديهم من قتل بعضهم لبعض ومن سفكهم الدماء بغير الحق ، ويجد الفلاح أن الآلهة قد أظهرت شبح الحرب على شعاف الأولمب فى حين أنها قد خبأت طيف السلام فى كهف هناك سحيق، فيجره ويعود به إلى الأرض، وفى ركابه طيف العيد وطيف المحصول وهما عروسان جميلتان ، فيتزوج عروس المحصول ويدخل بها على نغم عروس العيد وغنائها .

دريني خشبة

معهد التناسليات
معهد التناسليات تأسيس الدكتور ماجنوس هيرشفلد فرع القاهرة بعمارة روفيه رقم ١٦ شارع المبتديان تليفون ٤٢٥٧٨ بعناية مجلس الوصايات وإشراف أحمد والتراث التناسلية والتفريغ للرجال والنساء وتبشير الشباب والتبرع بالبكرة. ويعالج بصفة خاصة: زيادة الباسة طبقاً لأحدث الطرق العلمية والعيادة من ١٠ ص ٤ م. ٦-٤ م. ملحوظة: يمكن إعطاء نصائح بالمراسلة للتفضل بمراجعة العيادة بعد تعيين الموعد على مجموعة الأشعة البكتريولوجية المتوفرة على ١٤١ سؤالاً التى يمكن الوصول عليها نظير